بعض الملاحظات حول الأصول المشتركة للحضارة المصرية القديمة و جيرانها من المراكز الحضارية القديمة في الوطن العربي والتأثيرات المتبادلة بينهما

أ. لؤي محمود سعيد
ماجستير آثار مصرية - كلية الآثار – جامعة القاهرة

قد يبدو العنوان لأول وهلة غريباً . بل و مستهجناً أحياناً من كثير من الباحثين ودارسي الآثار المصرية . حيث ينبع هذا الاستهجان من ذلك الموروث العلمي التقليدي الذي تلقاه غالبية دارسي الآثار المصرية ، و الذي يؤكد بصورة " شيفونية " علي تفرد الحضارة المصرية القديمة بصورة مستقلة و منفصلة عمن جاورها وأحاط بها من المراكز الحضارية الأخري في الوطن العربي !!!تلك النظرة التي تمثل مزيجاً من الوطنية المفرطة قصيرة النظر ، مع كثير من التأثر بآراء السائدة في المدرسة الغربية الأوروبية لعلم المصريات ، و التي تلح علي فكرة الانفصال و الانعزال الحضاري لمصر عن جيرانها بدعوي العبقرية و التفرد .

وقد ترتب علي تلك الرؤية الضيقة أن اشتعل صراع مرير ما بين أنصار الحضارة المصرية القديمة و أنصار المراكز الحضارية الأخري في الوطن العربي (كحضارة بلاد الرافدين مثلاً) ، لمحاولة إثبات الأسبقية و الأفضلية لأي منها .

إن التحديات التي تفرضها علينا المرحلة الحالية و علي رأسها قضية "العولمة" وما يترتب عليها من مخاطر طمس الهوية الوطنية و القومية لصالح النظام العالمي الجديد أحادي القطب ، لتضع علي عاتق الآثاريين و المؤرخين العرب حملاً ثقيلاً وخطيراً في نفس الوقت .

ومن هذا المنطلق تنبع أهمية التحديد السريع و الدقيق لمعالم منهج ورؤية عربية موحدة لقضية الآثار و التاريخ - من خلال الحوار الموسع لاتي يستوعب تحديات المرحلة – يتبناها المثقفون العرب بشكل عام ، و تتخلل المناهج التعليمية في كافة أرجاء الوطن العربي .. بهدف تنشئة أجيال ذات رؤية وروح عربية تكاملية موحدة تستلهم التاريخ كأحد أهم مكونات التنمية الشاملة اقتصادياً وحضارياً .

وقد تعتمد هذه الرؤية علي عدة محاور رئيسية ..أهمها :

التأكيد علي الأصل الجنسي المشترك في اللغة و الدين و العادات ... و غيرها بين المراكز الحضارية المختلفة (في مصر وبلاد الرافدين و شمال الجزيرة و شرقها و اليمن و ليبيا و المغرب العربي و السودان و الصومال ..) بعد عصر الاستقرار الذي تلي مرحلة الترحال و التنقل ، وأثر ذلك في تكوين مزيج ومزاج حضاري عربي متقارب و متجانس.

إن تميز إحدى الحضارات و نبوغها لا يعني بالضرورة انفصالها واستقلالها عمن حولها ...بل علي العكس ، فإن الاتصال المستمر و التأثير المتبادل ثقافياً و حضارياً

بل و الاختلاط الجنسي مع الجيران لهو من أسباب الحيوية والتجديد لدماء تلك الحضارة .
الكف عن محاولات إثبات الأسبقية و الأفضلية لأي من المراكز الحضارية العربية المختلفة ، و التأكيد علي مظاهر التفاعل الإيجابي فيما بينها ، وأن الانتماء الوطني و الإقليمي لا يتناقض و لا يتعارض مع روح الانتماء القومي و العربي الأعم و الأشمل و الذي يصهرها جميعاً في بوتقة واحدة .

النقد العلمي الرصين لفكر المدرسة الغربية الذي يكرس مظاهر الفرقة و الانعزال الحضاري بين مصر و جيرانها ، بعيداً عن الشعارات الرنانة و الحماس الأجوف الزائد عن الحد ، حتى لا تفقد القضية أنصارها وينفض السماع عن المتحاورين

إن التأكيد علي الوحدة و التواصل بين أقطار الوطن العربي المختلفة من خلال القرائن الأثرية ، وغرس هذه المفاهيم في نفوس شعوب الوطن العربي لهي أولي خطوات تحقيق الوحدة الاقتصادية و التكامل الأشمل المنشود في مواجهة النظام العالمي الجديد الذي يكرس التبعية من خلال التجزئة وطمس الهوية الوطنية و القومية باعتبار السد المنيع و العائق الرئيسي لانتشارها .
إن التأكيد علي الهوية الحضارية العربية لا يعني في نفس الوقت الدعوة للانكفاء علي الذات ، بل يتوازي مع دعم أواصر التواصل الحضاري مع الدائرة الإسلامية الأوسع التي ينتمي إليها الوطن العربي ، و التفاعل الإيجابي مع النظام العالمي المعاصر و خاصة الحضارة الغربية التي استمدت أصولها الأولي في الأساس من الحضارات العربية القديمة.